

نشأت المقالة الحديثة في الغرب، على يد الكاتب الفرنسي "ميشيل دي مونتيني" في القرن السادس عشر، فقد كان يفيد من تجربته الذاتية في تناول الموضوعات التربوية والخلقية التي اختارها لكتابتها، فلقبت مقالاته رواجاً كبيراً في أوساط القراء. (5) ثم برز في إنجلترا "فرنسيس باكون" في القرن السابع عشر فأفاد من تجربة مونتيني، وطور تجربته الخاصة في ضوئها، ولكن عنصر الموضوعية كان أشد وضوحاً في مقالاته، مع الميل إلى الموضوعات الخلقية والاجتماعية المركزة. وفي القرن الثامن عشر بدت المقالة نوعاً أدبياً قائماً بذاته، يتناول فيه الكتاب مظاهر الحياة في مجتمعه بالنقد والتحليل، وقد أعان تطور الصحافة على تطوير هذا العنصر الأدبي، وبرز فيه عنصر جديد وهو عنصر السخرية والفكاهة، اتسع نطاق المقالة لتشمل نواحي الحياة كلها، وازدادت انطلاقاً وتحرراً، واتسع حجمها بحكم ظهور المجالات المتخصصة. (6) أما في أدبنا العربي القديم فهي كانت في شكل الرسائل التي تتناول موضوعاً من الموضوعات في إيجاز، أو بشيء من التفصيل وقد يكون كتاباً صغيراً كما في رسائل عبد الحميد الكاتب؛ وابن المقفع في كتابيه: (الأدب الصغير والأدب الكبير) والجاحظ في كتابه: (البيان والتبيين) وابن قتيبة وأضرابهم، ثم انحدر هذا النمط من الكتابة فصار ضعيفاً مضموناً وشكلاً فصارت أفكاره تافهة مبتذلة في لغة مثقلة بالمحسنات البديعية، وفي عصر الانحطاط (1258م-1798م): باتت كتابة الرسائل ذات الشبه بالمقال ضعيفة البناء، أفكارها مبتذلة، وأسلوبها ركيك مثقل بأنواع من المحسنات البديعية والسجع المتكلف. أما في العصر الحديث إلى يومنا هذا (1798- إلى يومنا هذا) فقد مرت المقالة بعدة المراحل: المرحلة الأولى: كانت المقالة فيها ضعيفة في بداياتها، تتناول غالباً موضوعات سياسية؛ وقد كان رفاة الطهطاوي (1801 - 1873 م) من الكتاب الأوائل الذين كان لهم الفضل في تخليص أسلوب النثر من عيوب التكلف وتعقيداته والتي ورثها عن عصر الضعف. المرحلة الثانية: تطورت هذه المرحلة مع بداية عصر النهضة، وفتحت المجال أمام الكتاب ليطوروا أساليبهم؛ فتخففوا من قيود الصنعة اللفظية، وصار همهم هوتقديم الفكرة الواضحة، بأسلوب سلس مباشر خال من التكلف والتعقيد؛ طه حسين، محمد حسين هيكل، والكواكبي، طه حسين، والعقاد، وغيرهم ممن قادوا الحركة الأدبية والفكرية والاجتماعية. وطه حسين، والزيات